أحمد محمد عطية

توفيق الحكيم وعروبة مصر *

« ان مصر والعرب طرفا نقيض .. »

(توفيق الحكيم ، « تحت شمس الفكر » ص ٦٠)

« اذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أي شعب عربي ، فمعنى هذا أنه لا بد أن يكون هناك شيء مشترك » .

(توفيق الحكيم ، « رحلة بين عصرين » ص ٨٨)

* * *

في كتابه « تحت شمس الفكر » ، كتب توفيق الحكيم : « لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هي الروح ، هي الاستقرار ، هي البناء ! .. والعرب هي المادة . هي السرعة ، هي الظعن ، هي الزخرف .. » (١)

وفي كتابه « من البرج العاجي » ، وهو أحد كتبه التي لم يعد طباعتها ، صور توفيق الحكيم مدى عمق الخلاف المزعوم بين العروبة والفرعونية في الحوار التالي : « جلس الي رجلان لا يختلفان في الزي ولا في اللغة ولا في اللهجة ، ولكن سرعان ما سمعت أحدهما يقول لصاحبه :

ـ أنت فلاح . أما أنا فعربي .

فعنيت بالامر . وبادرت أسأل الرجل السؤال الذي طالما القيته في مثل هذا الظرف :

ـ وما الفرق بين الفلاح والعربي ؟

فأجاب الرجل بذلك الجواب الذي سمعته كثيرا في مثل هذا الموضع : مروءة العربي وشهامته واكرامه الضيف وحمايته الجار . ثم .. ثم شرف النسب .

لم يدهشني ذلك ولكن الذي أدهشني حقيقة ، وقد لا يصدقني البعض اذا ذكرته ، هو أن هذا الرجل غير المتعلم قد أشار الى صاحبه وقال : أما جماعة الفلاحين فما هم الا أولاد توت عنخ آمون ... عجبا ! اذن منشأ الخلاف بين العروبة والفرعونية ليس أدمغة المفكرين والمثقفين ، وانما هو في الريف وفي قلوب ساكنيه !» (٢)

وتعبر هاتان الفقرتان ، وغيرهما من كتابات توفيق الحكيم الاخرى حول هذا الموضوع ، عن رأي الحكيم ، اللامنتمي سياسيا ، في قضية عروبة مصر ، في الثلاثينات . فتوفيق الحكيم ، بالرغم من أنه يكتب هذه السطور باللغة العربية أقوى دعامات العروبة والقومية العربية ، فانه ينفي عروبة مصر ويقول بفرعونيتها . وهو في هذه الاراء انما يركب الموجة الفرعونية ويسير مع التيار الغالب ، وينضم الى الدعوة الاقليمية للفرعونية والقومية المصرية ، التي تنظر الى العرب كغزاة دخلاء وتتشبث بعنصرية الاصل المصري الفرعوني .

وكانت الدعوة الفرعونية التي ارتفعت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، تستثمر شعار « مصر للمصريين » ، الذي أطلقته الحركة الوطنية المصرية للخلاص من الحكم الاجنبي لمصر ، وتتستر خلفه لتنطلق الى ما هو أبعد من ذلك ، الزعم بفرعونية المصري ونقائه العرقي ، والى التخلص من آثار العرب الدخلاء ولغتهم العربية ؟ فقد كانت هذه ذروة الدعوة الى عزل مصر واقليميتها في المجال الفكري والثقافي ، بعد ظهور خطر اليقظة القومية العربية ومواجهتها للحكم العثماني وللاستعمارين الانجليزي والفرنسي . فقد عمل الاستعمار القديم ، في المجال السياسي والفكري والثقافي ، على عزل مصر عن دورها القيادي كأكبر قوة عربية في المنطقة ، باحياء النعرات الاقليمية ، وتحريك الاقليات الدينية ، وأيضا بزرع اسرائيل في قلب المنطقة العربية لشق الوطن العربي الواحد وعزل مصر عن المشرق العربي ، وتثبيت الحدود الفاصلة بين أقطار الوطن العربي ، والتي لم تكن فاصلة قبل ظهور الاستعمار على الارض العربية .

ولعل من الغريب حقا أن ينتبه الاستعمار ، منذ عشرينيات القرن التاسع عشر ، الى أهمية عروبة مصر ودورها التاريخي في صد الهجمات الاستعمارية ضد الوطن العربي ، ولا يفطن الى ذلك بعض كبار المفكرين والمثقفين والكتاب المصريين ، في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين . وتكشف المراسلات السرية ، التي نشرها د. جوزيف حجار في كتابه « أوروبا ومصير

● نشرت بعض الفقرات من هذه الدراسة في صحفنا العربية.

(١) توفيق الحكيم ، تحت شمس الفكر ، ص ٦٠ .

(٢) توفيق الحكيم ، من البرج العاجي ، ص ٩٢ و ٩٣ .

الشرق العربي » عن مخاوف الاستعمار من ممارسة مصر لدورها الطليعي بين الاقطار العربية ، ومن قيام قوة عربية كبيرة في المنطقة تهدد المطامع الاستعمارية . فكتب « الكونت بروكش » ، مبعوث النمسا ، رسالة سرية تكشف عن مخاوف الاستعمار من يقظة مصر قائلا : « ان بريطانيا لا يمكن ان تتمنى لمصر أن تكون قوية ومستقلة عنها . وان وضع مصر الجغرافي وواقع كون التجارة مع الهند تشكل أساس عظمة بريطانيا قد جعلت ، بكل تأكيد ، هذه الدولة الكبيرة حريصة على ابقاء مصر مقاطعة ضعيفة وعاجزة . .»(٣) هكذا كان هدف الاستعمار القديم اضعاف مصر وعزلها ، ومنعها من أداء دورها التاريخي في المنطقة العربية ، حماية لمصالحه . وهو هدف لم يتغير لدى الاستعمار الجديد ، تغيرت الاسماء فحسب . فبدلا من تجارة الهند صار البترول العربي .

وفي ذلك العصر أيضا ، عشرينيات القرن التاسع عشر ، حيث كان التنافس البريطاني الفرنسي على اشده لالتهام الوطن العربي ، تنبهت فرنسا الى أهمية موقع مصر المؤثر في كل أنحاء الوطن العربي . وكتب « البارون كوهرن » ، المستشار الفرنسي لوزارة الخارجية الفرنسية انذاك (١٨٢٩) ، تقريرا سريا يمثل نبوءة بمستقبل الوطن العربي وبأهمية عروبة مصر . ويتحدث التقرير عن مكانة مصر وموقعها ودورها في تكوين « الامبراطورية العربية » (؟! » قائلا : « . . . هناك أولا موقع مصر الذي يفرض بأن يمتد تأثيرها الى أكثر المقاطعات بعدا عن مركز الامبراطورية أو الاكثر تعرضا الى الانفصال . . . فهناك سورية من الشرق والدويلات البربرية (؟!) من الغرب . علينا أن نعترف بأن هذا الموقع يساعد كثيرا على انشاء قوة حقيقية . ان صلات اللغة والعادات والاصل المشترك تشكل روابط دائمة قد تتيح دمج سكان سورية وبلاد البربر بسكان مصر . وما على محمد علي لكي يحقق هذه المهمة الا أن يسيطر على كل هذا الساحل الشاسع . .»(٤)

هكذا تنبه الاستعمار الى خطورة موقع مصر العربي القيادي ، وامكانيات تجميعها للامة العربية وتكوين قوة عربية حقيقية بقيادة زعيم مصر القوي الطموح محمد علي . وهذا هو ما جعل الاستعمار يوجه ضرباته الى مصر والى قائدها محمد علي ، لعزلها واضعافها ومنعها من تحقيق هذه الوحدة القومية التي تبرز الى الوجود حقائق القوة الكامنة في الامة العربية . لذا عملت الدول الاستعمارية على حصر محمد علي داخل حدود مصر واضعافها وعزلها عن شقيقاتها العربية . فتحالف الاعداء في الداخل والخارج على محاربة القوات المصرية وهزيمتها. وهكذا تم فصل سوريا ولبنان وفلسطين عن مصر .

وتحركت سفن الاستعمار الى الاسكندرية لاتمام عزل مصر واضعافها . . وفرضت المؤامرة شروطها على محمد علي . وبموجبها تحولت مصر مرة أخرى الى ولاية تخضع للاوامر العثمانية ، وتحدد عدد جيشها بعشرين ألف جندي وحدت من سلطة محمد علي في تعيين ضباطه .

وبعزل مصر عن المشرق العربي ، بدأت المؤامرة تنشط على بقية الاجزاء في الوطن العربي ، وهكذا بنجاح مؤامرة الاستعمار على عروبة مصر وضرب قوتها وحصرها داخل حدودها ، خلا الميدان من قوة تصد المطامع الاستعمارية في الاراضي العربية . وعندما تنبه الاستعمار الى خطورة عروبة مصر ودورها القوي في الوطن العربي ، بدأ العمل على عزلها عن المشرق العربي بزرع أولى البذور الصهيونية في فلسطين المتاخمة لمصر . ويكشف د. حجار (وهو كاهن كاثوليكي وماروني لبناني) عن مشروعين كبيرين « باعادة اسكان اليهود الاوروبيين في فلسطين وبتدويل القدس وضواحيها » في سنتي ١٨٤٠-١٨٤١ . ويقول د. حجار ان هذين المشروعين طمسا عن عمد بأيدي مؤرخي هذه الحقبة ، بالرغم من أهميتها في رسم مصير الشرق العربي في ذلك التاريخ المبكر . . . ويقول أيضا أن المرامي الاستعمارية قد موهت « بعناية تحت مظاهر النشاط الديني أو الكنسي » (٥) .

لذلك عمل الاستعمار على ضرب عروبة مصر واضعافها وعزلها عن أمتها العربية ووطنها العربي . . . وعندما نجحت مؤامرته الاولى ضد عروبة مصر وعزلها داخل حدودها وأمن قوتها ، أمكنه تحقيق المشروعات الاستعمارية باحتلال سائر أجزاء الوطن العربي بما فيها مصر واقامة الكيان الصهيوني العميل في فلسطين ليقطع اتصال مصر بالمشرق العربي ، وليساعد على التجزئة العربية التي تفتت الامةالعربية وتسهل ضرب اجزائها منفردة ، وتمنع ظهور الدولة العربية القوية الموحدة .

وقد أعاد التاريخ نفسه في عصرنا هذا عندما وجه الاستعمار ، القديم والجديد ، ضرباته لمصر ولزعيمها القوي جمال عبد الناصر ، لعزلها واضعافها ومنعها من ممارسة دورها العربي ، في وحدة الامة العربية وتحرير الوطن العربي وبروزه كقوة كبرى في عالم اليوم ، عالم الكيانات الكبرى . وعندما نطالع اراء الحكيم وغيره من المفكرين والكتاب أصحاب الدعوة الفرعونية ، التي تحارب عروبة مصر وتدعو الى عزلتها واقليميتها ، فلا يسعنا الا القول بأن أعداءنا هم أكثر وعيا ، من هؤلاء المفكرين والكتاب ، بأهمية وحدتنا العربية ، وخطورتها على المطامع الاستعمارية ، وضرورتها لتحقيق حرية الوطن العربي ورخائه وقوته وتقدمه .

---

(٣) د. جوزيف حجار ، « أوروبا ومصير الشرق العربي » ، الترجمة العربية لبطرس الحلاق وماجد نعمة ، ص ٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

هذه هي بايجاز شديد الاهمية التاريخية لقضية عروبة مصر . أما الدعوة الفرعونية فترجع الى سنة ١٩٢٢ عندما اكتشفت مقبرة توت عنخ امون . فقد ساعد هذا الاكتشاف على تنشيط الدعوة الفرعونية (*) . فعمل أصحابها على تمصير اللغة العربية والكتابة بالعامية المصرية ، ونادوا بكتابة ادب مصري فرعوني وابداع فن مصري فرعوني وخلق ثقافة مصرية فرعونية . وقاد هذه الدعوة الفرعونية أحمد لطفي السيد ود. محمد حسين هيكل على صفحات جريدة « السياسة » ، واشترك فيها د. طه حسين واحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم . وكان طبيعيا في نظر دعاة الفرعونية أن يهاجم الادب العربي والثقافة العربية والحضارة العربية .. حتى انتهى الامر بعبد العزيز فهمي . أحد قادة ثورة ١٩١٩ ، الى الدعوة للتخلص من الحروف العربية والكتابة بالحروف اللاتينية (٦) ، قاصدا هدم اللغة العربية أهم أسس القومية العربية .

في ذلك الحين ، وعندما كانت الدعوة الفرعونية سائدة وتكون التيار الغالب ، وافق توفيق الحكيم عبد العزيز فهمي في دعوته اللاقومية ، كما اعترف بذلك في كلمته التي ألقاها في تأبين عبد العزيز فهمي بالمجمع اللغوي لانتخابه في كرسيه في ١٧ مايو ١٩٥٤ اذ تحدث الحكيم عن عقدة صعوبات النحو العربي ثم قال : « ولكن عبد العزيز فهمي أراد أن يحل العقدة بسيف شجاعته ، فكان أن قدم اقتراحه المشهور بترك الحروف العربية ، واتخاذ الحروف اللاتينية . وأذكر أني وافقته في ذلك الوقت ، وكتبت اليه مهنئا ومؤيدا ، فتفضل ـ رحمه الله ـ وزارني في مسكني .. » (٧) ولكن في زمن خطبته (١٩٥٤) ، وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ قد حددت عروبتها ، لم يكرر الحكيم دعوة عبد العزيز فهمي بالغاء اللغة العربية أساس القومية العربية والوحدة العربية ، بل تراجع عن تأييده لدعوة الغاء الحروف العربية قائلا : « لن أتعرض اذن للعقدة . وخصوصا العقدة العسيرة . وهي حروف الكتابة العربية واللاتينية . ولكني اذا لزم الامر ، فأنا مستعد للدفاع عن انراي الاخر الابسط : وهو الخاص بتبسيط قواعد النحو واللغة ... »

« ونادى دعاة الفرعونية بأن مصر فرعونية أصلا ، وان الشعب المصري ما زال محتفظا بآثار أجداده الفراعنة في هيئة الجسم ، وسمة الوجه والتكوين العقلي والنفسي ـ والاتجاهات العاطفية والعادات الاجتماعية . وان أثر العرب في المصريين سطحي اذا ما قورن بعمق الاثر الفرعوني . ونادى أولئك المثقفون بضرورة احياء الاثار الفرعونية . وبعث الادب المصري القديم واقامة الادب المصري الحديث على أسس فرعونية والتبرؤ من العرب والحضارة العربية وانها لا تمت الى بقية الاقطار العربية الا بصلات واهية اهمها الدين ، والدين في سبيل الانهزام من الحياة الاجتماعية في هذا العصر الحديث ، واللغة التي لا تجعل وحدها من المكلمين بها أمة واحدة » (٨) .

الى هذا المدى وصل أنصار الفرعونية في انكارهم لعروبة مصر . وهي دعوة طالما عمل على تكريسها الاستعمار وعلماء الغرب في مصر ، لاضعاف مصر ومحو عروبتها وشل مركزها القيادي في الوطن العربي . وهي جزء من سياسة معروفة اتبعها الاستعمار في الوطن العربي ، بموجب اتفاقية سايكس بيكو ، لتمزيق وحدته وعزل أقطاره ومحو ثقافته العربية ولغته العربية ، ومحاولة استبدالها بثقافة المستعمر ولغته . هكذا صاحب الغزو العسكري للوطن العربي غزو ثقافي . رأينا هذه السياسة في الجزائر وفي المغرب وفي تونس وفي ليبيا وفي اخر نماذجها بفلسطين المحتلة .

وقد ساعد على انتشار الدعوة الفرعونية حداثة الوعي القومي العربي في الوطن العربي وفي مصر بصفة خاصة ، وان دعوة العروبة احياها التحدي العربي ، في الشام وسائر أقطار المشرق العربي ، ضد الحكم العثماني ، بينما كان النضال الوطني في مصر موجها ضد بريطانيا وكانت مصر تتمتع من قبل بحكم ذاتي لم يشعرها بوطأة الاستعمار التركي ، بل لقد هاجم بعض زعماء مصر حركة الثورة العربية ضد العثمانيين ، كما فعل مصطفى كامل ومحمد فريد مثلا (٩) .

ويذكر د. عبد العظيم رمضان . في كتابه « تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩٢٧ـ١٩٤٨ » . ان الفكرة العربية تقدمت بمصر خلال الثلاثين سنة من ١٩٢٠ـ ١٩٥٠ . كما ان سقوط دولة الخلافة التركية بعد الحرب العالمية الاولى وتمزق الشام الى دول صغيرة بفعل الاستعمار ، ومن ثم كشف الاستعمار عن وجهه القبيح باتمام احتلاله للوطن العربي واصدار وعد بلفور ، وظهور الثورات الوطنية ضد الاستعمار ، التي وحدت الامال والالام والاعداء ، واظهرت أهمية الوحدة العربية والانتماء العربي لمصر في مواجهة عدو استعماري مشترك ، كما ساعدت بداية تشكل مأساة فلسطين على جذب مصر الى العروبة . وتجلى هذا في دفاع محمد علي علوية عن

(*) وكما استثمر الاقليميون اعداء عروبة مصر اكتشاف اثار توت عنخ امون الزعم العنصري بفرعونية مصر ونفي عروبتها ، ها هم أحفادهم يعودون اليوم لاحياء توت عنخ امون ويستثمرونه في نفس الاتجاه اللاقومي !

(٦) نبيه بيومي عبدالله ، تطور فكرة القومية العربية في مصر، ص ٦٢ .

(٧) توفيق الحكيم ، صفحات من التاريخ الادبي لتوفيق الحكيم، ص ٩٧ـ٩٩ .

(٨) د. نبيه أمين فارس ، هذا العالم العربي ، ص ١٨٧و١٨٨

(٩) د. أنيس صايغ ، تطور المفهوم القومي عند العرب ، ص ٩٤ و ٩٥ .

عروبة مصر وهجومه على دعاوى الفرعونية في مقال هام كتبه بجريدة « السياسة » المصرية ، بعد عودته من فلسطين ودفاعه عن حقوق العرب في جدار البراق أمام لجنة التحقيق الدولية ، قائلا : « ... واني ليحزنني ايها السادة أن أرى وأسمع ، بعد أن ذهبت الى فلسطين ودافعت بضعفي عن قضيتها ، وعلمت أن الامة العربية ة واحدة يربطها رباط واحد ـ نعم يحزنني أن أفكر انه يوجد في بلادي فريق مهما كان وكان شأنه ، يبحث فكرة الفرعونية . انا لا أدري ما الحافز الذي حدا ذلك النفر الضئيل في مصر الى أن يصرح بقوله : حذار يا مصر أن تكوني واسطة عقد الامم العربية واختها الكبرى ، لانك لست منها بل أنت فرعونية . ان الفرعونية ليست جنسا من أجناس البشر . ولكنها عصر من عصور الحكم .. على إنني لو فرضت أن هناك جنسا فرعونيا لحما ودما وعظما، فان فوق هذا الجنس جنسا اخر ورابطة أخرى ، هي أن هذه الامم العربية تجمعها لغة واحدة وتقاليد واحدة وعادات واحدة وآلام واحدة وآمال واحدة . فهل يظن ظان انه يوجد اعتبار فوق هذه الروابط الوثيقة التي لا تنفصم روابطها ، وان اللحم والدم والعظم قيمة كقيمة التفكير الواحد واللغة الواحدة والتقاليد الواحدة والالام الواحدة ؟ .. ما مصر الا عربية ، ولا تقوم الا على أنها عربية ، ولا يرضى المصريون بغير العربية » (١٠) هكذا دافع مفكر مصري عن عروبة مصر . بينما حاول دعاة الفرعونية انكار عروبةمصر والفصل بينالعروبة والفرعونية واظهار عمق الخلاف بينهما ، كما يتضح في الحوار الذي صور به توفيق الحكيم مدى عمق الخلاف بين الفرعونية والعربية والذي صدرنا به هذه الدراسة . ولم يفكروا بأن الفرعونية حقبة تاريخية وتراث تاريخي لا يمكن الغاؤها ، وانها بهذا المفهوم لا تتعارض مع عروبة مصر التي دامت أربعة عشر قرنا امتزجت خلالها العربية بالمصرية ، فلم يعد من الممكن الفصل بينهما أو تصور الخلاف والتعارض بينهما .

وفي كتابات توفيق الحكيم ضد عروبة مصر ، ولتكريس عزلتها وانطوائها على فرعونيتها ، كان الحكيم يركب الموجةالفرعونية ويستثمر دعاوىمنظري الفرعونية، بهدف تعميق الهوة بين الفرعونية والعروبة ، وبين مصر والعروبة . فهو لا يكتفي بنفي عروبة مصر أو بتأكيد فرعونيتها ، بل انه يهاجم كل ما هو عربي ، من الحضارة العربية الى الثقافة العربية الى الادب العربي والفن العربي الى الانسان العربي » .

كتب توفيق الحكيم هذه الاراء المعارضة لعروبة مصر في الثلاثينات مع بداية اليقظة القومية العربية ، وتجسد القضية الفلسطينية ، وظهور الاتجاه العربي في مصر . فهو يفصل بين المصري والعربي ويؤكد أن العقلية المصرية تعني الخروج من الروح العربية و « ان اختلاطنا بالروح العربية ، هذا الاختلاط كان ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل الروح الاخرى الغالبة ، وان اول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الاخر .. » (١١) أي أنه ينادي بفصل المصرية عن العربية ، مع أنه يعترف بأن العروبة غلبت على روحنا وفكرنا و « ان شئون الفكر في مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربي وتقليده ! .. كنا في شبه اغماء لا شعور لنا بالذات .. لا نرى انفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين ! .. لا نحس بوجودنا .. ولكن نحس بوجودهم هم ! .. لم تكن كلمة أنا معروفة للعقل المصري ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد !» (١٢) .

وبعد أن يؤكد توفيق الحكيم ضرورة محو عروبة مصر في سبيل تحقيق الشخصية المصرية والروح المصرية، يأخذ في مهاجمة العرب وتجريدهم من كل مزاياهم الحضارية والعلمية والادبية . فالحضارة العربية عنده بلا فكر أو روح ، وموضعها عابر في الحضارة العالمية . ف « من المستحيل اذن ان نرى في الحضارة العربية أي ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذي تفهمه مصر والهند من كلمتي الروح والفكر ! ... ان العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها في هذه الحياة، فتشبثت به تشبث المحروم، وأبت الا أن تروي ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. ان موضع الحضارة العربية من (سانفونية) البشرية كموضع (شكيرتزو) من (سانفونية) بيتهوفن : نغم سريع مفرح لذيذ !! » (١٣) .

وهو يكرر هذا المعنى بأكثر من أسلوب ، قائلا بأن العرب فقراء جوعى أبناء صحراء جرداء ، وانهم لذلك حسيون نهمون للذة السريعة ، يفتقرون للمثل العليا بعيدا عن اللذة المباشرة . والامة العربية « أمة لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجري الانهار ورغد العيش ومعنى اللذة الا في السير والاخبار . كان حتما عليها الا تحس المثل الاعلى في غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجاري ، والوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي ! .. أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع ! .. كل تفكير العرب وكل فن العرب فيلذة الحس والمادة، لذة سريعة مفهومة مختطفة اختطافا ، لان كل شيء عند العرب سرعة ونهب وخطف ! » (١٤) .

---

(١٠) د. عبد العظيم رمضان ، تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩٣٧ـ١٩٤٨ جـ ٢ ص ٣٥٠ و ٣٥١ .

(١١) توفيق الحكيم ، تحت شمس الفكر ، ص ٥١ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ و ٦٠ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٥٥ و ٥٦ .

هكذا صور توفيق الحكيم العرب بلا حضارة وبلا مثل عليا ولا يهمهم سوى تعويض الحرمان من الطعام والشراب بالنهب والخطف . ولان العرب لا نصيب لهم من الحضارة أو المثل العليا ، فهم لا يحسون بالفن والجمال في الاهرام ولكنهم يتحرقون شوقا الى النقود المخبأة في داخل الاهرام . ف « الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذي يسر العين ويلذ الاذن .. انستطيع أن نتخيل العرب تبني الاهرام أو تقدر جمالا ؟ .. لقد جاء العرب مصر ، وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها . ولم يروا في الاهرام الا شيئا قد يحوي نقودا مخبوءة ، أما بناؤه فشيء لا يحسب في الفن ، انما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شيء . المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسنا بزخارفها ، زينة للناظرين ... بغير هذا فلا عمارة ولا فن . الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة ، والفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن ! ... الجمال عند العرب جمال انساني والفن عندهم شيء صنعه الانسان لنفسه وللذته ... الفن العربي القديم فن انساني دنيوي ، والفن المصري القديم فن الهي ديني ، لهذا اختلفت المقاييس في الجمال بين الفنين ، احدهما يعني بالتناسق الخفي بغير التفات الى الانسان ! ... ولعل المقياس العربي القديم هو المنفرد في مصر حتى اليوم بالحكم في قضايا الشعر والادب ! ... » (١٥) .

ولان اللذة الحسية السريعة هي معيار الحضارة والفكر والفن والادب عند العرب ، فقد جاءت كتبهم الادبية وترجماتهم عن اللغات الاخرى تعبيرا عن نظراتهم الحسية والنفعية . فهم لا يكتبون في موضوع واحد متصل ولا يهتمون بترجمة الاعمال الفنية الكبرى القائمة على البناء لان طابعهم العجلة . ف « قليل من الكتب العربية في الادب يقوم على موضوع واحد متصل ، انما أكثر الكتب كشاكيل في شتى الموضوعات ، تأخذ من كل شيء بطرف سريع : من حكمة واخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طيبة ولذة جسدية . وحتى اذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا تراجيديا واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير ، لانها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتليء طربا واعجابا . لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوي واشباع لذات الحس ، حتى الحكمة وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة . اشباع لذة المنطق والمنطق جمال دنيوي .. » (١٦) .

كذلك فان التصوير العربي مجرد زخرف وزينة لانهم يستهدفون اللذة الحسية السريعة أيضا ، « أما النحت والتصوير فليس في طبيعتهم ، لان تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها احساسا عميقا بالتناسق العام ، مبناه التأمل الطويل ، والوعي الداخلي للكل في الجزء ، وللجزء في الكل . وليس هذا عند العرب ، فهم لا يرون الا الجزء المنفصل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق ، في الادب لانهم لا يحتاجون الا للذة الجزء واللحظة ... » (١٧) .

ويمضي توفيق الحكيم في حملته على العرب ، فيصورهم في صورة الراكضين فوق الجياد يفتحون البلاد الحضارية العريقة ، ويخطفون أطايبها ، ولا يبدعون أدبا أو فنا أو حضارة عظيمة ، لانهم لا يستقرون في مكان ؟ فيقول : « لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة ، فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضا على الجياد ... كل شيء يحسونه الا عاطفة الاستقرار ... وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟ ... دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الارض ؟ وحيث لا أرض فلا استقرار وحيث لا أستقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا احساس بالبناء ! سواء في العمارة أو في الادب أو في النقد ... الاسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن ... « لان العمارة العربية لا تبدع فنا عظيما ولا تصدر عن فكر عميق ، انما هي مجرد زخارف ككل شيء عند العرب من الادب ، نثرا وشعرا ، الى الفن ، عمارة وتصويرا وموسيقى وغناء » والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرمز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي ، ولا يريدون الا التعبير المباشر بغير رموز الا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للاذن لا أكثر ولا أقل ...» (١٨)

وحتى الفارابي المفكر والعالم العربي العظيم لم يسلم من هجوم توفيق الحكيم ضد كل ما هو عربي ، لانه ــ في رأيه ــ فشل في التوفيق بين الموسيقى العربية والموسيقى الاغريقية . « لهذا السبب قدرت اخفاق الفارابي فان الموسيقى العربية وليدة عقل واع ، لان العرب أمة الفردية والوعي والمنطق العقلي والظاهر المحسوس ! .. ان العرب من عباد « أبولون » وهم لا يشعرون . ان العرب لا يمكن أن يفهموا « ديونيزوس » ، تلك النشوة الدينية الجارفة التي تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعي ، كي تصله مباشرة بالطبيعة !» (١٩) .

---

(١٥) المصدر السابق ، ص ٨٠ و ٨١ .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٥٨ و ٥٩ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٥٦ و ٥٧ .

(١٩) المصدر السابق ، ص ٥٨ و ٦١ و ٦٢ .

هكذا يجرد الحكيم العرب من كل قيمة حضارية او قدرة ابداعية أو فكرية أو علمية ، بغية التخلص من عروبة مصر وتأكيد فرعونيتها . ولقد اطلت بعض الشيء في هذه المقتطفات لاهميتها ودلالتها في التعبير عن آراء توفيق الحكيم في عروبة مصر في الثلاثينات . وهي آراء كما نرى ، تفتقر الى الموضوعية والعلمية ولا تحفل الا بشن حملة ضارية ضد العرب والعروبة بحجة فرعونية مصر ونقاء عنصرها المصري الذي حاول العرب طمسه ، دون أن ينجحوا في ذلك . لان الخلاف بين الفرعونية والعروبة عميق وجذري في رأي الحكيم في الثلاثينات . ولا شك « أن وحدة الاصل والدم انما هي من الاوهام التي استولت على العقول والاذهان — كما كتب ساطع الحصري — من غير أن تستند الى دليل أو برهان . لا الانجليز ولا الروس ولا الالمان ولا البلغار ، كانوا متجانسين من حيث الاصل والنسل ، حتى الامة الفرنسية لا تنحدر من أصل واحد ، هذه الامة التي كانت أسبق الامم الاوروبية الى تكوين وحدة سياسية قومية ، حتى هذه الامة نفسها انما تكونت من اختلاط عدد كبير من الاقوام والاجناس . فاعتزاز الفرنسيين بشارلمان وراسين وفولتير يأتي من أن انتسابهم الى أجدادهم هو انتساب معنوي كما نعتز نحن وكما ننتسب أيضا الى أجدادنا المعنويين سعد وخالد وابن الهيثم وابي العلاء » (٢٠) .

ولماذا نذهب بعيدا ، وعروبة مصر ، قبل الفتح العربي لها ، معروفة وثابتة تاريخيا ، وما يقال عن الخلاف العميق بين الفرعونية والعروبة انما هو محض اختلاق ، وبعيد تماما عن حقائق التاريخ العلمية ؟ فقد اكد علماء التاريخ القديم والاثار والاجناس ان العرب شكلوا أصول المصريين القدماء وانهم جاءوا الى مصر من عدة طرق ، من برزخ السويس كما فعل العرب فيما بعد في بداية الاسلام ، وعن طريق الصومال وأثيوبيا وجنوب الجزيرة العربية مرورا بباب المندب جنوبا ، وكذلك ما قاله « بريستيد » في تاريخه لمصر من هجرة الليبيين الى مصر . « ومن ذلك ما جاء في تاريخ السودان القديم للدكتور حسن كمال ان المصريين والسودانيين من أصل واحد وقد جاءوا الى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات ، ولقد قال تيودور الصقلي — والكلام للمؤلف المذكور — ان المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية نزلوا شواطىء أثيوبيا ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر .. » (٢١) .

وهكذا فان سكان مصر القدماء تجري في عروقهم الدماء العربية . وان العرب هاجروا الى وادي النيل قبيل عهد الاسرات المالكة وقبل ظهور المسيحية . كما أكد العالم الاثري الكبير سليم حسن في كتابه « مصر القديمة » ان العناصر العربية جاءت الى مصر عن طريق أعالي النيل وعن طريق فلسطين فسيناء فالدلتا ، وان العرب ادخلوا معهم مدنية راقية ، وانهم اسهموا في تأسيس المملكة الفرعونية . وان الملك مينا . اول ملك فرعوني وحد مصر ، عربي الاصل . بل ان الاسر المالكة الست الاولى تكونت من الجنس العربي ووحدت مصر تحت حكومة واحدة قوية . فللعرب فضل الاشتراك في مآثر الفراعنة وابداعاتهم وعلومهم وحضارتهم . وقد تغلغلت قبائل البدو العربية خلال حدود مصر الشمالية في الدلتا وسيناء واستقرت القبائل العربية في الدلتا والصعيد قادمة من الشمال والجنوب وشكلت ملامح سكان مصر العربية .

ويقول الدكتور عبد الله خورشيد البري ، في كتابه القبائل العربية في مصر » . ان العرب غزوا مصر غزوا حضاريا سليما اكتمل تأثيره سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد أي قبل الاسرات الفرعونية ، وانهم أثروا في جنس الموجودين في وادي النيل من أسوان حتى البحر الابيض ، وانهم استولوا على البلاد تدريجيا وبدون عنف . و « ان هؤلاء المهاجرين كانوا ارقى مدنية من المصريين أصحاب البلاد الذين لم يعرفوا الا الالات والاواني الحجرية ، فهم قد عمموا لغتهم في مصر وأدخلوا معرفة المعادن وبخاصة النحاس ، كما أدخلوا عبادتهم للاموات وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية » (٢٢) .

ومن هنا فان ما يقال عن الجنس المصري النقي الاصل ، المتميز عن العرب ، غير ذي موضوع . أضف الى ذلك ان الامتزاج العربي بمصر كان كبيرا في عهد الهكسوس ، بل ان حكم الاسرة الثامنة الذي امتد الى بلاد الشام شهد أعظم امتزاج للعرب بالمصريين . ونزوح البدو من الشام في عهدي سيتي ورعمسيس الثاني ، ثم خلال حكم ملكة تدمر الزبّاء العربية لمصر في العهد الروماني في النصف الثاني من القرن الثالث بعد الميلاد ، وتجمع القبائل العربية على حدود مصر ودخولها الى مصر في عهدي الزباء والقيصر دقلديانوس (٢٩٧—٤١٥) ، ثم دخول الموجات العربية مع الفتح العربي لمصر بعد ذلك بثلاثة قرون ونصف قرن . ان كل هذا الامتزاج العربي المصري ينفي النظرية العنصرية التي تحاول أن تفصل بين العروبة والمصرية .

ويؤكد محمد عزة دروزة في كتابه « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده» (٢٣)، ان هذا الامتزاج العربي المصري

---

(٢٠) ساطع الحصري سيرة حياته مع عرض لكل أعماله ، مجلة قضايا عربية العدد ٣—٤ يونيو — يوليو — ١٩٧٥ ، ص ١١٩—١٤٥

(٢١) محمد عزة دروزة ، عروبة مصر قبل الاسلام وبعده ، ص ١٣ وما بعدها .

(٢٢) د. عبدالله خورشيد البري ، القبائل العربية في مصر ، ص ٨ .

(٢٣) محمد عزة دروزة ، عروبة مصر قبل الاسلام وبعده ، ص ١٩ و ٢٠ .

حقق وحدة الاصل والدم والطبائع ، وساعد على سرعة اندماج المصريين بالعرب بعد الفتح العربي لمصر ، وعلى تحقيق عروبة مصر الصريحة . ويستشهد على ذلك بأن المصريين لم يمتزجوا باليونانيين والرومانيين الذين حكموا مصر نحو الف عام (٣٣٣ ق.م ـ ٦٤٠ ب.م) ، بينما تجاوبوا مع الحركة العربية الاسلامية وأخذوا يعتنقون الاسلام ، وان هذا يدل على أصالة عروبة مصر ، لان الامتزاج العربي بمصر تم قبل الفتح العربي لمصر . ويذكر دروزة بحق « ان موجات الجنس العربي قبل دور عروبته الصريحة أخذت تنساح الى مصر قبل الازمنة التاريخية المعروفة وتنتشر فيها وتنشيء الممالك الصغيرة ثم توحدها في مملكة واحدة في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، وانها ظلت بعد ذلك دائبة على الاتجاه نحوها من الجنوب والشمال واستطاعت أن تنجح المرة بعد المرة على الاتجاه نحوها من الجنوب والشمال واستطاعت أن تنجح المرة بعد المرة فتدخل بأعداد كبيرة حينا وأعداد صغيرة حينا ، وبعنف حينا وبهدوء حينا وتملا انحاء مصر وتكون صاحبة السلطان والمآثر فيها وان جل الاسر المالكة بل كلها منها » . (٢٤)

وغني عن البيان المدى الكبير لتدفق الموجات العربية الى مصر بعد الفتح العربي لها واستقرارها في مصر وامتزاجها بأهلها ، وانها اتسعت مع نمو القبائل العربية التي استقرت في مصر وانتشارها في أرجاء البلاد ، من الاسكندرية الى الصعيد مرورا بسيناء والدلتا، وطبعت مصر بطابع العروبة . ولقد تعرضت مصر لغزوات اجنبية متعددة ولحكم تركي وفرنسي وانجليزي ، ومع ذلك لم يتغير طابع عروبتها ولم تتغير لغتها العربية ، وهذا كله يؤكد خرافة الدعوة الفرعونية ، وعدم علمية المزاعم التي طالما رددها توفيق الحكيم مع دعاة الفرعونية عن الخلاف بين الفرعونية والعربية ، فالفرعونية دعوة عنصرية ، لا تقوم على أساس علمي ، وتبغي محو عروبة مصر عن أمتها وعن دورها القيادي والطليعي في تحرير الوطن العربي وتقدمه ووحدته . فلا تعارض بين عروبة مصر وتاريخها الفرعوني القديم، ولا مبرر ايضا للحساسية من ذكر التاريخ القديم لاي قطر عربي ما لم يهدف الى محو عروبته الاصيلة . فمن ذا الذي ينكر انتماءه لامة كبيرة كأمتنا العربية ، امة تملك كل أسباب القوة والحضارة والثراء وتحتل قلب العالم القديم ، خاصة ونحن في عصر الكتل الدولية الكبيرة . وأمامنا تجربة الوحدة الاوروبية والسوق الاوروبية المشتركة والجماعة الاوروبية ، التي تزداد ترابطا سنة بعد أخرى ، ولا يجمع بينها ما يجمع بين أبناء الامة العربية في كل مكان من الوطن العربي ، من وحدة اللغة والارض والتاريخ والتراث والالام والامال والاعداء ايضا . أما الحديث عن عمق الحضارة العربية وفضلها على الحضارة العالمية فحديث طويل . ولكن يكفي أن أشير هنا الى ما يؤكد خطأ المعلومات والاراء التي ساقها توفيق الحكيم في هجومه على الحضارة العربية والفكر العربي والادب العربي والفن العربيين .

يقول توفيق الحكيم ان الحضارة العربية بلا فكر أو روح ، وان مرورها عابر لم يؤثر في الحضارة العالمية . والرد على هذا يتطلب كتابة كتاب بل كتب وهي مكتوبة بالفعل . ويكفي أن أشير مثلا الى كتاب د. عبد الرحمن بدوي وهو عالم مصري ومفكر مصري كبير ، وعنوانه « دور العرب في تكوين العقل الاوروبي » . وفي هذا الكتاب، يثبت الدكتور عبد الرحمن بدوي أن دور الفكر العربي في تكوين الفكر الاوروبي هو دور واسع وشامل للآداب والفنون والفكر الفلسفي ، وللعلوم والصناعات والرياضيات ، عبر ترجمات أعمال المفكرين والعلماء العرب الفارابي وابن سينا والغزالي وابن خلدون وابن رشد والخوارزمي وغيرهم . وان التأثير قد تم في مرحلة اكتمال الفكر العربي وبداية يقظة العقل الاوروبي في اسبانيا ومدينة طليطلة وفي صقلية وجنوب ايطاليا . وان التأثير قد بلغ مداه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، حيث أتيح للحضارة العربية المزدهرة ان تؤثر في العقلية الاوروبية الناشئة، في مناطق الحدود والالتقاء بين العرب وأوروبا .

هذه هي العقلية العربية التي يدينها الحكيم بأنها بلا فكر ولا روح وأنها لا تؤثر في الحضارة العالمية . أنشأت أوروبا الاكاديميات ومدارس الترجمة لترجمة روائع الفكر العربي الى لغاتها . وعن طريق هذه الترجمات الاوروبية لعب العرب دورا مزدوجا في مجال التأثير في الفلسفة الاوروبية ، يجمع بين نقل التراث اليوناني ، فعنهم عرفت أوروبا أعظم أعمال أرسطو وأفلاطون وأفلوطين ، وبين نقل كتب الفلاسفة العرب واضافاتهم الفلسفية الى اللغات الاوروبية ، وقد تبعت عمليات الترجمة الكبيرة عمليات تمثل واستيعاب للمؤلفات الفلسفية العربية كتأثير مؤلفات الفارابي وابن سينا وابن جبرول في الفلاسفة الاوروبيين . وكانت ترجمة اعمال ابن رشد هي المؤثر الاعظم في الفلسفة الاوروبية وأهمها كتابه « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة من اتصال »، الذي يصفه د. عبد الرحمن بدوي بأنه أكبر المفكرين العرب أثرا في الحضارة الاوروبية .

هذا بعض ما قدمه العرب للحضارة العالمية في مجال الفكر . ويكفي حفظهم للتراث اليوناني الذي فقدت بعض أصوله ، وترجماتهم لعيونه التي نقلتها عنهم أوروبا من جديد . « ولقد خرج الدكتور اويس برنارد ، أستاذ تاريخ الشرقين الادنى والاوسط في جامعة لندن ، من دراساته بأن أوروبا تحمل دينا مزدوجا للعرب :

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

١ ــ حافظ العرب على الميراث الفكري والعلمي الذي خلفه اليونان وتوسعوا فيه ونقلوه الى أوروبا .

٢ ــ تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث، وضعت العقل فوق السلطة . ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة ... وكان لهذين الدرسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والايذان بعصر النهضة في أوروبا » (٢٥) .

اذن فالعرب اهل حضارة واستقرار ، وقد انشأوا المكتبات العظيمة . ولم يكن همهم اللذة الحسية السريعة والاكل والشراب اللذين حرموا منهما كما يقول الحكيم .

ويتهم الحكيم العرب بأنهم أصحاب عقلية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير . فيكفي أن نشير هنا الى أثر التراث العربي الاسلامي العميق في دانتي والكوميديا الالهية . وما أثبته المستشرق الاسباني « آنستين بلاثيو » . من وجود مشابهات وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الاسلامية عن معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي رسالة الغفران للمعري ، وبعض كتب محي الدين بن عربي من ناحية وما ورد في الكوميديا الالهية، وفي هذه المشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل من المؤكد ان التشابه لم يكن هنا أمرا عرضيا وتوارد خواطر، بل كان تأثيرا مباشرا للتصورات الاسلامية للاخرة». (٢٦) ألا يكفي هذا المثل من «الكوميديا الالهية»، لتوضيح أثر العرب في هذا العمل الفني الكبير ؟

ويقول توفيق الحكيم ان « الاسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن » . فلعل الاثار العربية التي لم تزل ماثلة في كل مكان باسبانيا وجنوب فرنسا وايطاليا أكبر رد على عظمة الفن المعماري العربي ، في الكنائس والقلاع والاعمدة والابراج العربية الجميلة . وقد شاهد الحكيم نفسه تأثير العمارة العربية في ايطاليا واعترف بذلك في ١٦ يونيو ١٩٥٤ . وكانت ثورة يوليو قد أبرزت وجه مصر العربي وتحدث عبد الناصر عن ارتباط مصر بالدائرة العربية في «فلسفة الثورة» هنا تغيرت الموجة وتحول التيار الغالب من الفرعونية الى العروبة ، فكتب الحكيم مقالا بمجلة « آخر ساعة » بعنوان « كومبارس مسرحيتي من الرهبان » ، تحدث فيه عن انطباعاته لدى مشاهدة تقديم مسرحيته «أهل الكهف» بالايطالية بمدينة «بالرمو»، واعترف الحكيم بأثر العرب والعمارة الاوروبية كما لمسه في آثار تلك المدينة الايطالية قائلا : « .. ولكن الطريف حقا هو اختيار الموقع ، لقد اختاروا لاهل الكهف موقعا من اهم المواقع الاثرية في تلك البلاد . هو دير « مونريالي .. ذلك الدير المشيد على الطراز البيزنطي العربي النورماندي . فالعرب في مجدهم قد جاءوا الى تلك البقعة من الارض وأثروا فيها وتأثروا .. » (٢٧) .

وكذلك يهاجم الحكيم الموسيقى العربية التي أثرت في موسيقى وأغاني « الفلامنكو » الاسبانية المشهورة ، التي انتقلت بدورها الى أوروبا في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، عبر الاتصال الاوروبي باسبانيا والاندلس ، ومن هنا ظهرت آثار الموسيقى العربية في الموسيقى الاوروبية ، وتجلت في الانغام والالحان والالات الموسيقية العربية كالربابة والعود والقيثارة . بل لقد انتقلت أيضا بعض الكلمات العربية من الاغنيات العربية الى الغناء الاوروبي .

ان مكانة الحضارة العربية واسهاماتها في الحضارة العالمية لم تعد محل جدال ، فاعمال العرب الفكرية والعلمية والادبية والفنية ماثلة للجميع ، من آثار « ألف ليلة وليلة » و « المعلقات السبع » (٢٨) في الادب العالمي الى تأثيرهم في الفلسفة والفكر الاوروبيين . كما ان سبقهم لمفكري وعلماء أوروبا الى كثير من الاعمال الفكرية والاكتشافات العلمية وارد ومعروف وثابت . فلدينا ابن خلدون وسبقه في نظرية فائض القيمة ، واكتشاف العرب للغيوم التي اهتدى بها ماجلان طوال رحلته حول العالم وقيامهم بأول قياس علمي لمحيط الارض ، وعبقرية عباس بن فرناس « أول من فكر وحاول الطيران وكسا نفسه بريش ، وبسط ذراعيه بشقق من الحرير ، وطار في ناحية (الرصافة) في قرطبة قرب جبل العروس»(٢٩). ذلك الشاعر العالم العبقري الذي سبق الى صناعة الساعة (المنقالة) وصناعة الزجاج من الحجارة وفك رموز الموسيقى واشاراتها الغامضة . وكذلك اختراعات وابداعات الملاح الشاعر أحمد بن ماجد في مجال طرق الملاحة البحرية وقيادته لفاسكو دي جاما في رحلته الى الهند . ولا يتسع المجال للكتابة عن عالم موسوعي عربي كالبيروني مثلا الذي استوعب الحضارة والعلم وبرز في الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والطب والصيدلة والفكر الفلسفي والاجتماعي . أو الخوارزمي وسبقه الى ادخال النظام العشري في الرياضيات ، أو اكتشافات جابر بن حيان الكيميائية أو الطبيب العربي

---

(٢٥) قدري حافظ طوقان ، مقام العقل عند العرب ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

(٢٦) د. عبد الرحمن بدوي ، دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي ، ص ٣٦ و ٣٧ .

(٢٧) توفيق الحكيم ، قلت ذات يوم ، ص ٨٢ .

(٢٨) س. آ. بوروت ، تأثير الادب العربي في الادب الانجليزي، ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، مجلة المعرفة ، عدد يناير ــ فبراير ١٩٧٨ ، ص ١٩١ــ١٩٢ .

(٢٩) د. محسن جمال الدين ، عباس بن فرناس أول رائد اندلسي للطيران ، مجلة المورد ، العدد الرابع ، المجلد السادس ١٩٧٧ ، ص ٩٢ــ٩٨ .

الحارث بن كلدة الثقفي الذي عاش في الجاهلية ومات بعد الاسلام ... وغيرهم وغيرهم من رواد الحضارة العربية التي يحق لنا أن نعتز بالانتماء اليها . حضارة الفكر والعقل والادب والفن والابداع ، وليست حضارة اللذة الحسية الخاطفة الجوفاء كما حاول توفيق الحكيم أن يقدمها لتبرير نظرية عنصرية بالية تقول بفرعونية مصر وتنفي عروبتها .

كانت هذه هي آراء توفيق الحكيم في قضية عروبة مصر ، التي رددها في الثلاثينات ، ابان ارتفاع موجة الدعوة الفرعونية . وعندما انهارت تلك الدعوة العنصرية الاقليمية اللاقومية واندحرت موجتها ، خلال مد القومية العربية في مصر وتراجع النزعات الاقليمية والطائفية بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ التي حددت عروبة مصر بحسم الثورة ومزجت مصر بأمتها العربية ، واستوعبت الدروس التاريخية من المراحل التي مرت بها قضية عروبة مصر . فلم يعد هناك مجال لدعاة الفرعونية والاقليمية . هنا تغيرت آراء الحكيم تبعا لتغير الموجة والتيار الغالب . فتراجع الحكيم ، من الحماس العارم للفرعونية والعداء الشديد للعروبة ولكل ما هو عربي ، الى الصمت حول هذه القضية تمهيدا للانتقال الى التيار الجديد الغالب ، تيار العروبة والقومية العربية . وجاءته الفرصة لدى تبني مؤتمر الادباء العرب ، المنعقد بالقاهرة في شهر ديسمبر عام ١٩٥٧ ، لقضية القومية العربية وجعلها موضوعه الرئيسي الذي تدور حوله أبحاث المؤتمر ونشاطه . هنا أدلى توفيق الحكيم بحديث الى أحمد حمروش ومحمود أمين العالم ، نشر بمجلة « الرسالة الجديدة » في ٢٥ من ديسمبر ١٩٥٧ ، تحدث فيه الحكيم متحمسا عن القومية العربية ولم يسخر منها أو ينكرها كعادته ، لانه في زمن القومية العربية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبعد المد الوحدوي العربي الذي ساند مصر على امتداد الوطن العربي ، خلال العدوان الثلاثي عليها ١٩٥٦ . لم ينكر الحكيم القومية العربية ، ولكنه طالب بدراستها وتعمقها ، واعتبر نفسه قوميا عربيا مع العرب الذين طالما سخر منهم وهاجمهم وأنكر عليهم علمهم وفكرهم وفنهم وثقافتهم ، فقال الحكيم : « ان الموضوع الرئيسي لمؤتمر الادباء العرب القادم هو الادب والقومية العربية وتوصيتي الوحيدة لهذا المؤتمر هو أن نتعمق الموضوع . وأن لا نقصر الحديث في القومية العربية على وضعها السطحي فالمؤتمر مؤتمر فكري يضم متخصصين في شئون الادب والفكر . لذلك أحب أن تبحث فكرة القومية العربية من جذورها بحيث تشمل روح التفكير العربي منذ القدم ، والطابع الذي يميزه عن التفكير الاوروبي مثلا . وهل نستطيع أن نجابه الدنيا اليوم قائلين : نحن العرب لنا تفكير عربي هو جزء من قوميتنا ؟ (٣٠) هكذا يتنقل توفيق الحكيم اللامنتمي من الرأي الى نقيضه ، لانه بلا موقف ولا مبدأ ولا اتجاه ولا نظرية انما هو يربط نفسه بالاتجاه السائد ويركب موجة التيار الغالب .

كان توفيق الحكيم قد قطع شوطا طويلا في عدائه للعروبة وفي ركوبه للموجة الفرعونية لدى مدها المرتفع . ولكنه ، في زمن المد القومي العربي ، وبالرغم من كل ماضيه الفرعوني ، أخذ الحكيم يبحث في خزانته عن أي قصة أو حكاية أو كتابة يبرر بها رجوعه عن آرائه وتعلقه الجديد بالموجة القومية العربية ، فوجدها في قصة قديمة حدثت له في الاربعينات تثبت تحمسه للقضايا العربية . وقد روى الحكيم هذه القصة أكثر من مرة على صفحات الاهرام ثم ضمها الى كتابه « رحلة بين عصرين » . وهي قصة طويلة خلاصتها ان القنصل الفرنسي رفض منحه تأشيرة دخول لفرنسا سنة ١٩٤٩ لانه هاجم فرنسا مرتين . الاولى سنة ١٩٤٣ عندما كتب مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » ، عبر فيه عن خيبة أمله في فرنسا بعد اعتدائها على استقلال لبنان « واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزراءه ونوابه » . والمرة الثانية عندما رد الحكيم نيشانا فرنسيا ، سبق اهداؤه اليه بمناسبة ترجمة بعض مؤلفاته الى الفرنسية ، وذلك « على أثر اعتداء فرنسا على تونس . وكانت مذابح وضحايا ، وتكونت في مصر لجنة من الهلال الاحمر رأت الذهاب الى تونس بالاذونة اللازمة للجرحى . واذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء .. » أي أن الحكيم اتخذ هذين الموقفين انسياقا مع التيار السائد في مصر آنذاك . وعندما أراد الحكيم أن يبرر موقفه للقنصل الفرنسي ، لم يقل له أن هذا بسبب العروبة ولكنه قال له : « ضع نفسك في مكاني .. ألم تغضبوا يوم اعتدى الالمان على استقلال بلجيكا ؟ .. » فحتى بلجيكا التي ضرب بها الحكيم المثل لاختلافها قوميا عن فرنسا ، صارت بلجيكا اليوم عضوا في الجماعة الاوروبية ومقرا لسوقها المشتركة .. وهذا موضوع اخر . فالذي يهمنا هنا أن الحكيم ساق كل هذه القصة الطويلة ليبرر بها عودته الى العروبة والقومية العربية فعقب على قصته قائلا : « ولكن أنا عجبت لنفسي ، ما الذي كان يغضبني هذا الغضب !! أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات ، لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية ... اني أتصرف دائما من وحي شعوري التلقائي أو نظرتي الخاصة . اذن غضباتي صادقة . لانها تابعة مني وحدي ، ونظراتي أيضا لانها صادرة من تقديري وحدي . ما دمت صادقا مع نفسي وهي المنبع عندي فالامر اذن حقيقي . واذا كنت اغضب تلقائيا لما يمس أي شعب عربي ، فمعنى هذا أنه لا بد

---

(٣٠) أحاديث مع توفيق الحكيم ، ص ٥١ .

أن يكون هناك شيء مشترك » (٣١) هكذا حاول الحكيم أن يبرر تناقضاته وردته عن آرائه السابقة القائلة بالفرعونية وبـ « أن مصر والعرب طرفا نقيض » ، بأنه اكتشف عروبته تلقائيا ! وتعجب لذلك ؟!

ولكن الحكيم هو نفسه الذي عاد في زمن لاحق وتحدث عن دوافع آرائه المتناقضة عن عروبة مصر ، وحاول أيضا أن يبرر تنقله الغريب بين الفرعونية والعروبة ، وذلك في حواره مع اليسار المصري . فقد كان الحكيم فرعونيا واقليميا ومعاديا للعروبة عندما كانت دعوة الفرعونية تقوم على دعوة مصرية مصر المعادية للحكم الاجنبي ، بينما البلاد العربية محتلة في العشرينات والثلاثينات ، ولم يكن الحكيم يقول بالعروبة لانه « في ذلك الوقت لم تظهر قضية أنا عربي .. » (؟!) . « وفي الواقع فان فترة العشرينيات والثلاثينيات اذا كانت قد أبرزت مصرية مصر وربطت ذلك بتاريخها وبحضاراتها المختلفة فان الفترة التي تلتها ـ فترة الاربعينيات حدث فيها تحول انعكس على مواقف الكتاب والادباء .. » (٣٢) والتحول الذي حدث في الاربعينيات لم يكن في زوال الاحتلال كما يقول الحكيم ، فقد كانت مصر وجميع الاقطار العربية واقعة تحت الاحتلال الاستعماري طوال الاربعينيات ولم يتحقق غير استقلال سوريا ولبنان في أواخر الاربعينيات ، ولكن التحول جاء من ظهور قضية فلسطين وما أثارته من وعي قومي عربي ويقظة قومية عربية وقيام الجامعة العربية ، أي ظهور موجة عربية جديدة حول معها الحكيم اتجاهاته وآراءه ، ورد النيشان الفرنسي وهاجم فرنسا لاعتدائها على لبنان . أي أن الحكيم لم يكتشف عروبته تلقائيا ، ولكنه ظل اللامنتمي سياسيا ، وراكب الموجة السائدة ، فهو فرعوني عندما كانت الموجة الفرعونية سائدة في العشرينيات والثلاثينيات، وهو عربي عندما تتغلب الموجة العربية في الاربعينيات . وسنجده مرة أخرى يتنكر لعروبته ويعود الى ردائه الفرعوني الاقليمي ، بعد وفاة جمال عبد الناصر زعيم القومية العربية .

فبعد وفاة جمال عبد الناصر ، واشتراك الحكيم في تمجيده وتبرعه ، هو البخيل ، بخمسين جنيها من ماله لاقامة تمثال لعبد الناصر في ميدان التحرير ، أكبر ميادين القاهرة ، مجاراة لتيار الحزن والوفاء للزعيم العظيم أيضا . صمت الحكيم يرقب التحولات والتغيرات من حوله ويتحسس اتجاه التيار القادم ، ثم هجم على عبد الناصر وثورة يوليو والعروبة في كتابه الشهير «عودة الوعي » . وسنرجيء دراسة آرائه في عبد الناصر وثورة يوليو ، ونكتفي هنا بآرائه الجديدة في العرب والعروبة ، تلك الاراء التي بدأها الحكيم في كتابه «عودة الوعي» بالتشكيك في وجه مصر العربي وفيما طرحته ثورة يوليو من قومية عربية ووحدة عربية . فتساءل في شكل أسئلة استنكارية قائلا : « .. هل ثورة ١٩٥٢ كانت ذات فائدة حقيقية لمصر والبلاد العربية أو أنها معترضة لسيرها معرقلة لنهضتها ؟ وهل كانت نظاما طبيعيا أو نظاما مصنوعا نتج عن حركة آزرتها وخططت لها أمريكا لتزرع في المنطقة أنظمة عسكرية على غرار ما فعلته في أمريكا الجنوبية لتوقعها أن مصر وقتذاك كانت مهيأة فعلا ومقبلة على نهضة ذاتية تنبت فيها الاشتراكية نبتا طبيعيا شعبيا ويقوم فيها التصنيع والاصلاح والوحدة العربية على أسس صحيحة ثابتة ناضجة ، أو أن بلادنا ما كانت تبلغ من ذلك شيئا الا بعد جهد وزمن وانه لا مكاسب يمكن أن تنالها بسرعة الا عن طريق القرارات العسكرية؟...»(٣٣) فالحكيم في هذه المرحلة . يقرر أن مصر كانت مهيأة للدخول في الوحدة العربية سنة ١٩٥٢ ثم يشك في جدوى القومية العربية والوحدة العربية كما طرحتها ثورة يوليو ١٩٥٢ . كان الحكيم هنا في مرحلة انتقال بين ركوبه للموجة العربية طوال الثورة وبين ردته الجديدة الى الفرعونية القديمة .

كان الحكيم يستشعر التيار القادم ، لذا نجده بعد أحداث ١٨ و ١٩ يناير يهدد العرب ، عرب البترول ، تهديدا واضح المغزى مؤداه أنه اما أن يشارك عرب البترول في ميزانية تسليحنا « والا فليكن لنا سياسة أخرى تدرأ عنا وعن المنطقة ما يتهددها من خطر ... » (٣٤) ولن نناقش هنا مدى صحة مزاعم الحكيم عن ميزانية التسليح لانه أعلن رسميا التزام بعض الاقطار العربية البترولية بكل ميزانية التسليح لقواتنا المسلحة في حينه ، وحتى لا يتشعب بنا الحديث ، نعود الى تهديد الحكيم للعرب بأنه ستكون لنا سياسة أخرى . فقد كان الحكيم يمهد بهذا التهديد ، في رأينا ، لفرعونيته الجديدة التي لم يلبث أن رددها تحت اسم جديد هو الحياد » . واختار لها الحكيم الوقت المناسب ، عندما دبت الخلافات بين مصر وبعض الاقطار العربية ، ووجدت فيها بعض الاصوات الاقليمية فرصتها للوقيعة بين مصر والعروبة . فارتد الحكيم عن العروبة التي ظن أنها موجة انقشعت ، وليست دماء أصيلة تجري في عروق المصريين وسواهم من أبناء الامة العربية .

وفي البداية لم يستخدم الحكيم كلمة الفرعونية بل ادخرها لبعض الوقت ، مكتفيا برفع لافتة جديدة باسم « الحياد » . وعنى به أن تنسحب مصر من انتمائها العربي والتزاماتها العربية ، وتنكفيء على ذاتها ، وتتقوقع

---

(٣١) توفيق الحكيم ، رحلة بين عصرين ، ص ٨٧-٨٩ .

(٣٢) مجلة الطليعة ، عدد مارس ١٩٧٥ ، حوار اليسار مع توفيق الحكيم ، ص ٥٣ .

(٣٣) توفيق الحكيم ، عودة الوعي ، ص ٨٣ .

(٣٤) توفيق الحكيم ، طعام الفم والروح والعقل ، ص ٣٩ .

في داخلها وتنعزل عن أمتها العربية ووطنها العربي ، وتتخلى عن مكانتها الطبيعية والقومية . وهذا هو ما حوربت مصر من أجله منذ عهد محمد علي حتى ازدادت شراسة محاربيها في ربع القرن الاخير ، كي تنعزل وتكف عن ممارسة دورها التاريخي في المنطقة العربية . وهي حروب موجهة الى مصر بقدر ما هي موجهة الى الامة العربية ، لانها تستهدف تقليص حجمها وحجبها عن مصادر قوتها العربية ، بغية ضربها واستغلالها واعادة استثمار مكانتها لصالح الامبريالية وقوى الضغط الخارجية .

فما هو الوجه الجديد للفرعونية، الذي حاول الحكيم بذكاء شديد تغطيته بلافتة جديدة تحمل اسم «الحياد»؟! يقول توفيق الحكيم ، في مقاله الخطير « الحياد » (٣٥) ، أن مصر لن تعرف لها راحة ولن تتخلص من مشكلاتها الاقتصادية المعقدة الا عن طريق « واحة مورقة مزهرة اسمها الحياد » . وهو يزين هذه الدعوة الفرعونية الجديدة بحيث يجعلها أشبه بيوتوبيا جديدة تحقق «الراحة والاستقلال وطعام المعدة والروح والعقل ؟ » ولكي تتحقق هذه الدعوة الاقليمية الحيادية يجب أن تكف مصر عن بذل « الاموال والجهود » التي تضيع بدافع من مشكلات خارجية ودولية تغذيها الاطماع الداخلية والشخصية . والطريق الذي لا طريق سواه هو طريق الحياد الذي ينادي به الحكيم ، فيحول مصر الى « متحف العالم » لتستثمر مصر آثارها في السياحة وتحمي متحفها من الحروب والمشكلات السياسية والمغامرات العسكرية ؟! أما العرب فيكفيهم ان يتعلموا في مصر ، وأن يتنزهوا في مصر ؛ وأن تتاح لهم هذه الفرجة الحضارية ؛ وعليهم أن يبعدوا بمشاكلهم عن مصر . « فعند العرب الان المال والرجال .. ولا شك أنهم شبوا عن الطوق ، ولم يعودوا في حاجة الى القاء المشاكل والمشاغل على كاهل مصر ، لتشل فكرها وتنزف دماءها ، ويجوع أبناؤها ..» .. « أما جيش مصر فيجب أن يكون جيشا دفاعيا قويا مزودا بأحدث الاسلحة لا للهجوم والاعتداء ؛ ولكن للدفاع عن حيادها ؟! وهذا الحياد هو الذي سيخلص مصر من « النزاعات والمشكلات » .

هذه هي مبررات الفرعونية الجديدة التي دعا اليها الحكيم باسم الحياد . فمصر في رأي الحكيم يجب ألا تشغل بقضايا غيرها من العرب . فقد شبوا عن الطوق ويمكن أن يتولوا أمورهم بأنفسهم . ومصر يجب أن تنسلخ من ضميرها العربي ومن تراثها العربي ومن مكانتها العربية وأن تغير من دستورها وتاريخها وكل ما يمثل عروبتها وأن تفتح بابها للجميع (؟!) بحجة الحياد .

(٣٥) توفيق الحكيم ، الحياد ، الاهرام ، عدد الجمعة ٣ مارس ١٩٧٨ .

ان خطورة هذه الدعوة الفرعونية الجديدة هي في توقيتها لتلتقي مع بعض الاصوات التي لم تزل تشكك في عروبة مصر ، وتود أن تنعزل مصر عن أمتها العربية ، وأن تتنكر لعروبتها وتدير ظهرها للوطن العربي . تلك الاصوات في حاجة الى مثل هذه الدعوة الاقليمية الانعزالية حتى تحقق المبرر الفكري لمزاعمها . كما جاءت هذه الدعوة في وقت مرت فيه العلاقات العربية بأزمة مؤقتة ، فحاولت تعميق الازمة . لان هذه الدعوة صادرة من كاتب كبير مثل توفيق الحكيم تجاهل فيها وضع الاراضي العربية المحتلة ، وما تقتضيه من توحيد الصفوف العربية والتضامن العربي في مواجهة الاعداء ، وعدم تمكينهم من تحقيق أهدافهم في عزل مصر عن شقيقاتها العربية ، واضعاف المعسكر العربي الواحد وتفتيته .

وهكذا فان دعوة الحياد ، التي وجهها الحكيم ، هي الوجه الجديد الخطر للدعوة الفرعونية القديمة والمحاولة الجديدة لمحو عروبة مصر ، متجاهلة أن عروبة مصر هي سر مجدها ومكمن قوتها ؛ وذلك بحكم موقعها بين جيرانها من الاقطار العربية الشقيقة . وعروبة مصر حقيقة علمية تاريخية ومصيرية ، فكما يقول د. جمال حمدان ، في كتابه « شخصية مصر » ، « انها دائما جزيرة عربية يحيط بها العرب من كل الجهات . ومن هنا ، وسواء عد التاريخ عاملا من عوامل الترشيح أو من عوامل التكثيف، فان مصر مع التاريخ تزداد عروبة وعروبتها تزداد عمقا وكثافة ، ربما بعكس الاطراف . وفي ضوء هذه الحقيقة تبدو غريبة حقا بل وجاهلة تلك التخرصات التي تثار من حين الى حين عن عروبة مصر » (٣٦) ويضيف الدكتور جمال حمدان قائلا : « ان مصر هي بوتقة العرب » وانها « بالامتداد الجغرافي تبدو مصر قاسما مشتركا في العالم العربي . فاذا كانت العروبة بامتدادها الطبيعي اسيوية ـ افريقية ، فان مصر ببيتها الافريقي ونافذتها الاسيوية خير ما يشجع ويلخص العروبة » . (٣٧) هذه هي دلالة موقع مصر في قلب الوطن العربي ، ومن ثم فان مشكلات مصر وسائر الاقطار العربية واحدة ومتداخلة ولا يمكن الفصل بينها أو عزل قطر عربي عن الاخر . فلا حل لمشكلات مصر الاقتصادية بعيدا عن التكامل العربي الاقتصادي والسياسي ، ولا مستقبل لمصر بمعزل عن الوطن العربي والامة العربية .

وفي مقالين تاليين لدعوته الفرعونية الجديدة باسم الحياد ، كشف توفيق الحكيم عن عدائه الصريح للعروبة والامة العربية ، محاولا نشر دعوته وتعميمها للتداول في

(٣٦) د. جمال حمدان ، شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان ، ص ٢٤٠ و ٢٤١ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

« ندوات للحياد » . قائلا بأنه « عندما نقول ان العرب أمة واحدة . لها قضية واحدة . فهو قول لا أساس له من الواقع .. لان الواقع هو أن لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التي تهمها في المكان الاول ..» وقال أيضا أنه « لا يمكن أن يكون هناك اتحاد حقيقي ، وقضية واحدة بين العرب .. » وانه « لا بد اذن من حياد مصر وعدم تدخلها في قضية شقيق من أشقائها العرب الا بالتوكيل الرسمي .. » (٣٨) وعندما تصدى الدكتور وحيد رأفت لدعوة الحكيم الفرعونية الجديدة المسماة بالحياد ، في مقال بعنوان « الحياد المرفوض » (٣٩) الذي نبه فيه د. وحيد رأفت الى خطورة هذه الدعوة الانعزاليةالجديدة التي تبغي لمصر الذبول والانزواء والانكفاء على ذاتها ، والتنحي عن دورها القيادي التاريخي ، في صد العدوان الصليبي على الامة العربية في حطين عام ١١٨٧ وقهر التتار في عين جالوت عام ١٢٦٠ ، عندئذ اكتفى توفيق الحكيم في مقال بعنوان « الحياد المطلوب » برفض حجج الدكتور وحيد رأفت ، مصرا على انكاره لعروبة مصر . لان « هذا الكلام الذي سمعناه كثيرا طوال أكثر من عشرين عاما عن دور مصر القيادي وزعامتها للعالم العربي والتزاماتها العسكرية مما زج بمصر في ثلاث حروب خاسرة أفقدتها مالها وأرواح أبنائها » (٤٠) .

هكذا يرتد توفيق الحكيم الى عدائه الصريح للعروبة وانكاره لعروبة مصر ، مؤكدا ان اللامنتمي السياسي ليس له موقف ثابت وان آراءه القومية طوال العشرين سنة الماضية يمكن أن يدخل في اطار غياب وعيه ، لانه في رده على د. وحيد رأفت يرى أن تمسك مصر بعروبتها وبروز وجه مصر العربي بعد ٢٣ يوليو هو من الكلام الكثير الذي سمعه طوال أكثر من عشرين عاما، واعتبر ذلك مبررا كافيا لرفضه . وكان الحكيم قد برر صمته وتمجيده طوال تلك الاعوام العشرين بغياب الوعي كما هو معروف .

فتوفيق الحكيم ينكر وجود أمة عربية ، بسبب التفاوت في الغنى والفقر وفي الثروات الطبيعية العربية، وهو شرط جديد للامة يختلقه توفيق الحكيم اختلاقا ، متجاهلا الاسس الحقيقية الثابتة للامة العربية ، في اللغة المشتركة والارض المشتركة والتاريخ المشترك والعدو الواحد والامال الواحدة أيضا ، وكلها عوامل للوحدة والقومية بين العرب . وينسى أنه يمكن لهذا التفاوت ، في الثراء والثروات الطبيعية والبشرية والفنية ، ان يخدم التكامل الاقتصادي العربي وان يقودنا لمجتمع عربي اشتراكي موحد ، ولدولة الوحدة الكبرى في عصر الكيانات الكبيرة . فكيف يمكن ان نتجاهل كل عوامل الوحدة العربية والقومية العربية والامة العربية المشتركة بين الاقطار العربية ، وندعي بأنه لا توجد قضية واحدة للعرب ؟! وهذا الاحتلال الاسرائيلي الا تشكل مواجهته قضية واحدة ؟! وهذه الدماء المشتركة التي تدفقت في حرب اكتوبر أليست قضية واحدة ؟! ما الذي جاء بالمغربي والسعودي الى مرتفعات جبل الشيخ والجولان المتجمدة ليموت دفاعا عن أرضه العربية ، أليست القضية العربية الواحدة ؟! وبالمثل ما الذي جاء بالجزائري والعراقي والسوداني والليبي الى قناة السويس وسيناء ، أليست هي القضية العربية الواحدة ؟! وحتمية التكامل الاقتصادي العربي أليست قضية عربية واحدة ؟!

« اننا نعيش في وسط أمة ونعيش محاطين بالامم فلوجودها ولكيانها حقيقة لا يماري فيها ـ كما يقول ريمون بولان أستاذ السوربون ـ ويبدو انها تشكل في زماننا هذا المبادىء الضرورية لوجود كل جماعة سياسية ولمعقوليتها كما أنها تشكل مبادىء العلاقات التي نسميها بالدولية ، علاقات السلم والحرب بين الامم على حد قولهم » (٤١) . فهل يمكن في هذا المعترك الدولي أن تتنكر مصر لعروبتها وأن تتقوقع وتنعزل ، كما يدعو كاتب كبير كتوفيق الحكيم محاولا احياء النعرات الاقليمية وبث الشقاق والخلاف بين أبناء الوطن العربي الواحد ؟!

هذه هي آراء توفيق الحكيم المتناقضة والمتعارضة في قضية عروبة مصر ، بدأها بالحماس الشديد لدعوة الفرعونية الاقليمية العنصرية ، وبنفي عروبة مصر والهجوم على العرب والعروبة وكل ما قدمه العرب للحضارة الانسانية من انجازات علمية وفكرية وفنية وثقافية . ثم عاد ، في عهد ثورة يوليو ، فتحمس للعروبة والقومية العربية ومزجهما بالمصرية لوجود ما هو مشترك بينهما . وأخيرا تنكر الحكيم للعروبة مرة أخرى .

ومن الغريب أنه عندما بشر بحياده يبدو أنه فوجىء بتيار قوي من المقالات القومية والبيانات الرسمية (*) تهاجم فكرته الاقليمية ، مما دعاه الى الارتداد الى خزانته فأخذ يقلب قصصه وآراءه القديمة ، التي تصلح لكل وقت ، فتذكر قصته القديمة مع القنصل الفرنسي ، التي أتينا على ذكرها من قبل ، واختار بعضا من كتاباته الاخرى في كتابه « شمس الفكر » واستبعد طبعا آراءه الصريحة

---

(٣٨) توفيق الحكيم ، ندوات الحياد ، الاهرام ١٣ مارس ١٩٧٨

(٣٩) د. وحيد رأفت ، الحياد المرفوض ، الاخبار ١١ مارس ١٩٧٨ .

(٤٠) توفيق الحكيم ، الحياد المطلوب ، اخبار اليوم ١٨ مارس ١٩٧٨ .

(٤١) ريمون بولان ، معنى الامة ، الترجمة العربية لاديب العاقل ، ص ٤٣ .

(*) أدلى د. بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية ببيان رسمي في مجلس الشعب المصري ندد فيه بدعوة الحياد قائلا « بالرغم من بعض الاراء التي كتبت في الصحافة عن حياد مصر ، وهي دعوة انعزالية ، اريد أن أؤكد أن مصر جزء من الامة العربية ، فلا مستقبل لمصر دون الامة العربية ، الاهرام ١٤ ابريل ١٩٧٨ .

في عدائها للعرب والعروبة . ثم تساءل الحكيم « اذن ما الذي حدث ؟ هل انا غيرت رأيي في العروبة ، أو ان العروبة التي تغير موقفها ؟ أما فيما يختص بي فأنا لم أغير شيئا .. » (كذا ؟!) ثم قال مبررا تحولاته الجديدة، وهي مبررات تخالف ما ذهب اليه من قبل عندما برر دعوته الفرعونية في الثلاثينيات ، قال الحكيم ، انه لم يتغير « ولكن الذي تغير هي أوضاع الدول العربية . فبعد أن كانت متقاربة فيأحوالها تقريبا من حيث خضوعها كلها لذل الاحتلال وضآلة الاقتصاد الى حد أن كنا في شبابنا نسمع في كل موطن عربي عبارة (كلنا في الهم شرق) .. أصبحت الدول العربية اليوم مقسمة الى دول بعضها مشغول بمضاعفة ثرائه وبعضها مهموم بعلاج افلاسه . وبعضها مثخن بجروح حروبه . وبعضها يرتع معافى في أمانة ... » (٤٢) هذه هي مبررات دعوة الحياد الاقليمية الانعزالية ، تفاوت الغنى والفقر في الاقطار العربية .

وعلى أية حال فقد وضع الحكيم النقاط فوق الحروف مختتما سلسلة آرائه المتناقضة حول قضية عروبة مصر ، وذلك في حديث أدلى به توفيق الحكيم الى الاذاعة الفرنسية ، بمناسبة صدور طبعة فرنسية جديدة من كتابه « يوميات نائب في الارياف » ، ونشرت الاهرام ترجمة كاملة للحديث ، قال الحكيم : « أعتقد أن الذي يربطنا بالعرب نحن المصريين هي اللغة العربية ، ولكن المصري غيور على شخصيته التاريخية لان مصر هي الخالدة ، مصر الفراعنة ، مصر التي مرت بكل الحضارات، نحن متحف العالم ولذلك فنحن نحرص بشدة على ذاتيتنا الاصيلة » (٤٣) . هكذا عاد توفيق الحكيم اللامنتمي الى ترديد دعوته الفرعونية المعادية للعرب والعروبة . فأنكر كل الصلات العميقة والحميمة التي تمزج مصر والمصريين بالعرب والعروبة والامة العربية ، ولم يعترف الا باللغة العربية . ولما كان الحكيم قد أيد من قبل دعوة عبد العزيز فهمي القديمة لالغاء الحروف العربية والكتابة بالحروف اللاتينية ، فلنا الحق أن نتوقع عودة الحكيم الى آرائه القديمة ومطالبته بقطع آخر خيط يراه متصلا بين مصر والعروبة . أو ربما تغير التيار ، عندئذ سيكتشف الحكيم ان العروبة هي الاصل وان المصرية هي الفرع ، وان الدماء العربية لن تجف في عروق المصريين لان عروبة مصر حقيقة تاريخية ثابتة وغير قابلة التحول والتلاعب ، وانها أهم قضايا المصير ، بل هي قضية القضايا كلها .

القاهرة

---

(٤٢) توفيق الحكيم ، العروبة بين الوحدة والتوحيد ، الاهرام ١٢ ابريل ١٩٧٨ .

(٤٣) توفيق الحكيم ، الاهرام ١٣ يوليو ١٩٧٨ .

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب